٣ ـ خلافة عبد الله بن الزبير وزواجه

قال «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: (والأصح ما قاله الذهبي أن «مروان» لا يُعَدُّ في أمراء المؤمنين، بل هو باغٍ خارج على «ابن الزبير»، ولا عهده إلى ابنه بصحيح، وإنما صحَّت خلافة «عبد الملك» من حين قُتِلَ «ابن الزبير».

وأما «ابن الزبير» فإنه استمر بمكة خليفة إلى أن تغلَّب «عبد الملك» فجهز لقتاله «الحجاج» في أربعين ألفاً، فحصره بمكة أشهراً، ورمى عليه بالمنجنيق، وخذل «ابنَ الزبير» أصحابُه، وتسللوا إلى «الحجاج»، فظفر به وقتله وصلبه، وذلك يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من جمادى الأولى ـ وقيل: الآخرة ـ سنة ثلاث وسبعين)[1].

وكان «ابن الزبير» فارس قريش في زمانه، فقد كان أبوه «الزبير بن العوام» رضي الله عنه يُرْدِفُه خلفه حين يخرج إلى القتال ليدربه على الفروسية وقراع الأبطال، وهذا ما جعل منه الفارس المغوار، الذي لا يُشَقُّ له غبار.

وقد أخرج أبو يعلى في مسنده، عن ابن الزبير؛ أن النبي ﷺ احتجم، فلما فرغ، قال له: «**يا عبد الله! اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد**»، فلما ذهب شربه، فلما رجع، قال: «**ما صنعت بالدم؟**» قال: عمدت إلى أخفى موضع فجعلته فيه، قال: «**لعلك شربته!**» قال: نعم. قال: «**ويل للناس منك، وويل لك من الناس**»، فكانوا يرون أن القوة التي به من ذلك الدم.

وكان «ابن الزبير» ذا مناقب جَمَّة، ذكر «السيوطي» بعضها: قال «عمرو بن دينار»: ما رأيت مصلياً أحسن صلاة من «ابن الزبير»، وكان يصلي في الحِجْر ـ والمنجنيق يصيب طرف ثوبه ـ فما يلتفت إليه.

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٧٨.

وقال «مجاهد»: ما كان باب من العبادة يعجز الناس عنه إلّا تكلفه «ابن الزبير»، ولقد جاء سيل طبق البيت، فجعل يطوف سباحة.

وقال «عثمان بن طلحة»: كان «ابن الزبير» لا ينازع في ثلاثة: لا شجاعة، ولا عبادة، ولا بلاغة، وكان صَيِّتاً إذا خطب تجاوبه الجبال.

وأخرج ابن عساكر، عن عروة؛ أن «النابغة الجعدي» أنشد «عبد الله بن الزبير»:

حكيت لنا الصديق لما وليتنا وعثمان والفاروق فارتاح معدِمُ
وسويت بين الناس في الحق فاستوى فعاد صباحاً حالك اللون أسحمُ

وعن هشام بن عروة، وحبيب، قالا: أول من كسا الكعبة الديباج «عبد الله بن الزبير»، وكانت كسوتها المسوح والأنطاع.

وعن هشام بن عروة، قال: كان أول ما أفصح به عمي «عبد الله بن الزبير» ـ وهو صغير ـ السيف، فكان لا يضعه من فيه، فكان أبوه إذا سمع ذلك منه يقول: أما والله! ليكونن لك منه يوم ويوم وأيام.

وأخرج «السيوطي» عن عمر بن قيس، قال: كان لابن الزبير مائة غلام، يتكلم كل غلام منهم بلغة، وكان «ابن الزبير» يكلم كل أحد منهم بلغته، وكنتَ إذا نظرتَ إليه في أمر دنياه قلتَ: هذا رجل لم يرد الله طرفةَ عين، وإذا نظرت إليه في أمر آخرته، قلتَ: هذا رجل لم يرد الدنيا طرفة عين.

وعن أبي عبيدة، قال: جاء «عبد الله بن الزبير» الأسديُّ، إلى «عبد الله بن الزبير بن العوام» فقال: يا أمير المؤمنين! إن بيني وبينك رحماً من قبل فلانة، فقال «ابن الزبير»: نعم، هذا كما ذكرتَ، وإن فكرتَ في هذا أصبتَ، الناس بأسرهم يرجعون إلى أب واحد، وإلى أم واحدة.

فقال: يا أمير المؤمنين! إن نَفَقَتي نفدت، قال: ما كنتُ ضمنتُ لأهلك أنها تكفيك إلى أن ترجع إليهم، قال: يا أمير المؤمنين! ناقتي قد نَقِبَتْ ـ أي: رَقَّ خُفُّها من كثرة السير ـ، قال: أنجد بها تبرد خفها، وارفعها بسبت، واخفضها بهلب، وسر عليها البَرْدَيْن ـ أي: الغداة والعشي ـ، قال: يا أمير المؤمنين! إنما

جئتك مستحملاً ولم آتك مستوصفاً، لعن اللهُ ناقةً حملتني إليك! فقال «ابن الزبير»: إنَّ وراكبَها ـ أي: نعم وراكبتها أيضاً ـ، فخرج الأسدي يقول:

أرى الحاجات عند أبي خُبَيْبٍ ... نَكِدْن ولا أميةَ في البلادِ
من الأعياص أو من آل حربٍ ... أغر كعزّة الفرس الجوادِ
وقلت لصحبتي أدنوا ركابي ... أُفارقْ بطن مكة في سَوَادِ
وما لي حين أقطع ذاتَ عرقٍ ... إلى ابن الكاهلية من مَعَادِ

وأخرج عبد الرزاق في مصنفه، عن الزهري، قال: لم يحمل إلى رسول الله ﷺ رأس إلى المدينة قط، ولا يوم بدر، وحمل إلى «أبي بكر» رأس فكره ذلك، وأول من حملت إليه الرؤوس «عبد الله بن الزبير»[1].

وقد حاصر «الحجاجُ» لمدة ثمانية أشهر وسبع عشرة ليلة «عبد الله بن الزبير» ثم قتله، وصلبه، ثم أمر بإلقائه في مقابر اليهود[2]، وكان قد تفرَّق عنه أصحابه، وخذله بنوه.

قال «أبو جعفر الطبري» في تاريخه: وذُكِرَ أنه كان ممن فارقه وخرج إلى «الحجاج» ابناه «حمزة» و«خُبَيْب»، فأخذا منه لأنفسهما أماناً، فدخل على أمه «أسماء» ـ كما ذكر محمد بن عمر، عن أبي الزناد، عن مخرمة بن سليمان الوالبي، قال: دخل «ابن الزبير» على أمه حين رأى من الناس ما رأى من خذلانهم، فقال: يا أُمَّهْ! خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردتُ من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنتَ تعلم أنك على حق، وإليه تدعو، فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكِّن من رقبتك يتلَعَّب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا، فبئس العبد أنت! أهلكت نفسك، وأهلكت من قُتِلَ معك، وإن قلتَ: كنتُ على حق، فلما وَهَن أصحابي ضعفتُ، فهذا ليس فعلَ الأحرار، ولا أهل الدين، وكم خلودُك في الدنيا؟ القتل أحسن.

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ١٨٩.
(٢) صحيح مسلم رقم (٢٢٩/ ٢٥٤٥).

فدنا ابن الزبير فقبَّل رأسها، وقال: هذا والله! رأيي، والذي قمتُ به داعياً إلى يومي هذا ما ركنتُ إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلَّا الغضب لله أن تُسْتَحَل حُرَمُه، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتيني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أمه! فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلِّمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمَّدْ إتيان منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يَجُر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمَّدْ ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم من عمالي فرضيتُ به بل أنكرتُه، ولم يكن شيءٌ آثَرَ عندي من رضا ربي، اللهم! إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي، أنت أعلم بي، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني، فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدَّمْتَني، وإن تَقدَّمتك ففي نفسي، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك.

قال: جزاك اللهُ يا أمَّهْ! خيراً، فلا تَدَعي الدعاء لي قبلُ وبعدُ، فقالت: لا أدعه أبداً، فمن قُتِلَ على باطل فقد قُتِلْتَ على حق، ثم قالت: اللهم! ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبِرَّهُ بأبيه وبي، اللهم! قد سلَّمتُه لأمرك فيه، ورضيتُ لما قضيتَ، فأثبني في «عبد الله» ثواب الصابرين الشاكرين.

قال «مصعب بن ثابت»: فما مكثَتْ بعده إلا عَشْراً، ويقال: خمسة أيام.

قال «محمد بن عمر»: حدثني موسى بن يعقوب بن عبد الله، عن عمه، قال: دخل «ابن الزبير» على أمه، وعليه الدرع والمِغْفَر، فوقف فسلَّم، ثم دنا فتناول يدها فقبَّلها، فقالت: هذا وداع فلا تبعَد، قال «ابن الزبير»: جئت مُوَدِّعاً، إني لأرى هذا آخر يوم من الدنيا يمر بي، واعلمي يا أُمَّهْ! أني إن قتلتُ فإنما أنا لحم لا يضرني ما صُنِعَ بي، قالت: صدقتَ يا بني! أتْمِمْ على بصيرتك، ولا تمكِّن «ابن أبي عقيل» منك، وادنُ مني أودعكَ، فدنا منها فقبلها وعانقها.

وقالت حين مسَّت الدرع: ـ وكانت قد عميت ـ: ما هذا صنيع من يريد ما تريد!

قال: ما لبستُ هذا الدرع إلَّا لأَشُدَّ منك، قالت العجوز: فإنه لا يشد مني، فنزعها ثم أدرج كميه، وشد أسفل قميصه، وجبةُ خَزٍّ تحت القميص،

فأدخلَ أسفلها في المِنْطَقة، وأمه تقول: البس ثيابك مُشَمَّرة، ثم انصرف «ابن الزبير» وهو يقول:

إني إذا أعرف يومي أصبِرْ إذْ بعضهم يعرف ثم يُنْكِرْ

فسمعت العجوز قوله، فقالت: تصبَّر والله! إن شاء الله، أبواك «أبو بكر» و«الزبير» وأمك «صفية بنت عبد المطلب».

وقال «أبو جعفر»: حدثني الحارث، قال: حدثني ابن سعد، قال: أخبرني عن محمد بن عمر، قال: أخبرنا ثور بن يزيد، عن شيخ من أهل حمص شهد وقعة «ابن الزبير» مع أهل الشام، قال: رأيته يوم الثلاثاء، وإنا لنطلع عليه أهل حمص خمسمائة خمسمائة من باب لنا ندخله، لا يدخله غيرنا، فيخرج إلينا وحده في أثرنا، ونحن منهزمون منه، فما أنسى أرجوزةً له:

إني إذا أعرف يومي أصبِرْ وإنما يعرف يوميه الحُرُّ
إذ بعضهم يعرف ثم ينكِرْ

فأقول: أنت والله! الحر الشريف، فلقد رأيته يقف في الأبطح ما يدنو منه أحد حتى ظننَّا أنه لا يُقْتل، وتابع «ابن جرير» يقول:

حدثني الحارث، قال: حدثنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثنا «مصعب بن ثابت»، عن نافع مولى بني أسد، قال: رأيت الأبواب قد شحنت من أهل الشام، يوم الثلاثاء، وأسلم أصحابُ «ابن الزبير» الممارس، وكثرهم القومُ فأقاموا على كل باب رجالاً وقائداً وأهل بلد، فكان لأهل حمص الباب الذي يواجه باب الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبة، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جُمَح، ولأهل قِنَّسْرِينَ باب بني سهم.

وكان «الحجاج» و«طارق بن عمرو» جميعاً في ناحية الأبطح إلى المروة، فمرة يحمل «ابن الزبير» في هذه الناحية، ومرة في هذه الناحية، فلكأنه أسد في أجَمَة ما يقدم عليه الرجال، فيعدو في أثر القوم، وهم على الباب حتى يخرجهم، وهو يرتجز:

إني إذا أعرف يومي اصبِرْ وإنما يعرف يوميه الحُرّ

ثم يصيح: يا أبا صفوان! ويلُ أمِّه فتحاً لو كان له رجال!

لـــو كـــان قِـــرْنـــي واحـــداً كَـــفَـــيْـــتُـــهْ

قال «ابن صفوان»: إي والله! وألف. ثم تابع ابن جرير يقول:

حدثني الحارث، قال: حدثنا ابن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: فحدثني ابن أبي الزناد، وأبو بكر بن عبد الله بن مصعب، عن أبي المنذر، وحدثنا نافع مولى بني أسد' قالا: لما كان يوم الثلاثاء صبيحة سبع عشرة من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، وقد أخذ «الحجاج» على «ابن الزبير» بالأبواب، بات «ابن الزبير» يصلي عامة الليل، ثم احتبى بحمائل سيفه فأغفى، ثم انتبه بالفجر، فقال: أذِّن يا سعد! فأذَّن عند المقام، وتوضَّأ «ابن الزبير»، وركع ركعتي الفجر، ثم تقدم، وأقام المؤذن، فصلَّى بأصحابه، فقرأ ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ [القَلَم، الآية: ١] حرفاً حرفاً، ثم سلَّم، فقام، فحمِد الله، وأثنى عليه، ثم قال: اكشفوا وجوهكم حتى أنظر، وعليهم المغافر والعمائم، فكشفوا وجوههم، فقال: يا آل الزبير! لو طبتم لي نفساً عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطُلِمْنَا في الله لم تُصِبْنا زيَّاء تبَّةً، أما بعد يا آل الزبير، فلا يَرُعْكُم وقع السيوف، فإني لم أحضر موطناً قط إلا ارْتُثِثْتُ فيه من القتل، وما أجد من أدواء جراحها أشد مما أجد من ألم وقعها، صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم، لا أعلم امرءاً كسر سيفه، واستبقى نفسه، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل، غُضُّوا أبصاركم عن البارقة، وليَشْغَلْ كل امرىء قِرْنَه، ولا يُلْهِيَنَّكُمُ السؤال عني، ولا تقولُنَّ: أين «عبد الله بن الزبير؟» ألا من كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول:

أبـى لابـن سَـلْـمـى أنـه غـيـر خـالـدٍ مُـلاَقـي الـمـنـايـا أيَّ صـرفٍ تَـيَـمَّـمَـا
فـلـسـتُ بـمـتـاع الـحـيـاة بِـسُـبَّـةٍ ولا مُـرْتـقٍ مـن خـشـيـة الـمـوت سُـلَّـمَـا

احملوا على بركة الله. ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون، فرُمِيَ بآجُرَّةٍ فأصابته في وجهه فأُرْعِشَ لها، ودَمِيَ وجهُه، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه ولحيته، قال:

فـلـسـنـا عـلـى أعـقـابـنـا تَـدْمَـى كـلـومُـنـا ولـكـن عـلـى أقـدامـنـا تـقـطـر الـدِّمَـا

وتغاوَوْا عليه ـ أي: تجمعوا وتعاونوا عليه فقتلوه أو لم يقتلوه ـ.

قالا: وصاحت مولاة لنا مجنونة: والأمير المؤمنيناه! قالا: وقد رأته حيث هوى، فأشارت لهم إليه، فقتل وإن عليه ثياب خز، وجاء الخبر إلى «الحجاج»، فسجد وسار حتى وقف عليه و«طارق بن عمرو»، فقال «طارق»: ما ولدت النساء أذكر من هذا.

فقال «الحجاج»: تمدح مَنْ يخالف طاعة أمير المؤمنين! قال: نعم، هو أعذر لنا، ولولا هذا ما كان لنا عذر، إنا محاصروه، وهو في غير خندق ولا حصن ولا منعة منذ سبعة أشهر ينتصف منا، بل يفضل علينا في كل ما التقينا نحن وهو، فبلغ كلامهما «عبد الملك» فَصوَّب «طارقاً».

وعن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، قال: بعث «الحجاج» برأس «ابن الزبير» ورأس «عبد الله بن صفوان» ورأس «عُمَارة بن عمرو بن حزم» إلى المدينة، فتعبت بها، ثم ذهب بها إلى «عبد الملك بن مروان» ثم دخل «الحجاج» مكة، فبايع من بها من قريش لعبد الملك بن مروان[1].

وقال «المصعب الزبيري» في كتابه «نسب قريش»: (و«عبد الله بن الزبير» أسَنُّ ولد «الزبير»، وهو أول مولود ولد بالمدينة من المسلمين، ويقال: بل من المهاجرين، وكان «ابن الزبير» يقول: هاجرت مع أمي، وأنا حَمْلٌ في بطنها؛ فما أصابها من مخمصة ولا وَصَب إلَّا قد أصابني، وحنَّكه رسول الله ﷺ بريقه ويده؛ وله يقول العقيلي:

بَرٌّ يبيِّن ما قال الرسول له ... من الصلاة بضاحي وجهه عَلَمُ
حمامةٌ من حمام البيت قاطنةٌ ... لا يتبعُ الناسَ إن جاروا وإن ظلموا

وقالت «عائشة» لرسول الله ﷺ: اكْنِني، قال: «**تكنَّيْ بابنك عبد الله بن الزبير**» وهي خالته أخت أمه؛ وكانت كنيتها «أمَّ عبد الله».

وكان النبي ﷺ قد جمع المهاجرين والأنصار الذين ولدوا في الإسلام حين ترعرعوا، فبايعهم فكان منهم «عبد الله بن الزبير»، وسمع من النبي ﷺ شيئاً

(١) تاريخ الطبري (٦/ ١٨٨ ـ ١٩٢).

حَدَّث به، وتوفي النبي ﷺ و«عبد الله» ابن عشر سنين، ويحدِّث أن «عمر بن الخطاب» مَرَّ بأبي لؤلؤة، و«عمر» يتكىء على يد «عبد الله بن الزبير»؛ فقام إليه «أبو لؤلؤة»، ومعه فأس كان يعمل بها؛ فجعل يدنو من «عمر» ويكلمه، قال «ابن الزبير»: فأنكرته، فصحت عليه، فتأخَّر، فأقبل عليَّ «عمر»، فقال: إنه لَيَهُمُّ بشر.

وغزا «عبد الله بن الزبير»، «أفريقيَّة» مع «عبد الله بن أبي سرح» العامري، قال «ابن الزبير»: هجم علينا «جُرْجير» ملك إفرنجة في عشرين ألفاً، فأحاطوا بنا، والمسلمون في عشرين ألفاً، فاختلف الناس على «ابن أبي سرح»، فدخل فُسْطاطاً له، فخلا فيه، ورأيت غِرَّةً من «جُرْجير»، بَصُرْتُ به خلف عساكره على بِرْذونٍ أشهبَ، معه جاريتان تُظلِّلان عليه بريش الطواويس، بينه وبين جنده أرض بيضاء ليس فيها أحد، فخرجتُ أطلب الإذن على «ابن أبي سرح»، لأُخبره بغِرَّته؛ فأتيت حاجبه، فأبى أن يأذن لي عليه، فدُرْتُ من كِسْرِ ـ جانب ـ الفُسْطاط، فدخلتُ عليه؛ فوجدته مستلقياً على ظهره يفكر؛ ففزع واستوى جالساً؛ فقلت: إيهِ، كلَّ أَزَبَّ نَفُور، قال: ما أدخلك عليَّ يابن الزبير بغير إذن؟ قلت: رأيت عورةً من العدو؛ فاخرج فانتدب الناس: قال، وما هي؟ فأخبرته؛ فخرج معي مسرعاً، فقال: يا أيها الناس! انتدبوا مع «عبد الله بن الزبير»، فاخترت ثلاثين فارساً، فقلت: احموا لي ظهري، وحملتُ في الوجه الذي رأيت فيه «جُرْجير»، فما كان إلَّا أن خرقتُ الصف إليه، فخرجتُ صامداً إليه؛ ما يحسب هو وأصحابه إلَّا أني رسولٌ، حتى دنوت منه؛ فعَرف الشرَّ، فقَبَل ـ استقبل ـ برذونَه مُوَلِّياً، وأدركته فطعنته فسقط، وسقطت الجاريتان عليه، وأهويتُ إليه، فضربتُه بالسيف، فأصبتُ يد إحدى الجاريتين فقطعتها، وذَفَّفْتُ ـ أجهزتُ ـ عليه؛ ثم احتَزَزت رأسه، وجعلتُه على رمحي، وكبَّرتُ، ورفعتُ الرمح، وحمل المسلحون في الوجه الذي كنت فيه، وارفضَّ العدو من كل وجه، ومنح الله أكتافهم، فوجَّهني «ابن أبي سرح» بشيراً إلى «عثمان بن عفان»؛ فقدمتُ عليه، فأخبرته بفتح الله ونصره، ووصفتُ أمرَنا كيف كان، فلما فرغتُ من ذلك، قال: هل تستطيع أن تؤدي هذا إلى الناس؟.

قال: قلت: وما يمنعني من ذلك؟ أنت أهيب عندي منهم، قال: فاخرج إلى المسجد، فأخبرهم، فخرجتُ حتى أتيتُ المنبر، فاستقبلت الناس، فتلقَّاني

وجه أبي «الزبير بن العوام»؛ فدخلتني له هيبة؛ فعرفها مني؛ فقبض قبضته من حَصَى، وجمع وجهه في وجهي، وهَمَّ أن يحصبني؛ فاعترفتُ، فتكلمتُ، قال أبي «الزبير» حين فرغتُ: كأني سمعت كلام «أبي بكر الصديق»، فمن أراد أن يتزوج امرأة فلينظر إلى أبيها أو أخيها، فإنها تأتيه بأحدهما»[1].

وتزوج «عبد الله بن الزبير»، «تُمَاضِر بنت منظور بن زَبَّان بن سَيَّار بن عمرو بن جابر بن عقيل بن هلال بن مازن بن فزارة» وأمها «مُلَيْكة بنت سنان بن أبي حارثة» المُرِّي، زوَّجه إياها «الزبير بن العوام». فولدت له: «خبيباً» و«حمزة» و«عباداً» و«ثابتاً»، رحم الله «ابن الزبير» رحمة واسعة.

(١) نسب قريش، ص: ٢٣٧ ـ ٢٣٩.